الكاتب: أ.د/ بشار أكرم جميل الملاح
جامعة الموصل/كلية الآداب/قسم التاريخ

عنوان المقال: اثر الحضارة العربية الإسلامية على غرب أفريقيا

البريد الالكتروني: basharj@rocketmail.com

تاريخ الارسال: 03/03/2020 **تاريخ القبول:** 18/03/2020 **تاريخ النشر:**2020/03/31

اثر الحضارة العربية الإسلامية على غرب أفريقيا

The impact of the Arab Islamic civilization on the countries of Sudan

الملخص بالعربية:

تناول البحث دراسة منطقة جغرافية لا نستطيع أن نقول أنها تمتلك مقومات حضارة قديمة كتلك الحضارات التي قامت في بلاد الرافدين ووادي النيل وغيرها من حضارات العالم ، إلا أنها وفي نظر مواطنيها كانت حضارة تعتز بهويتها وبمقومات كيانها ، وفي الوقت الذي كانت فيه تلك المنطقة (غرب أفريقيا) تعيش وفق نظام بسيط يتخذ من الصيد والرعي وسيلة للعيش ، ومن أغصان الأشجار والخرز وسيلة لستر العورة ، ومن الطين والأخشاب وسيلة لبناء السكن ، وعلى تقديس الملوك وعدهم آلهة ، فضلاً عن تقديس الأفاعي وتقديم القرابين للآلهة ، أمام كل ذلك وغيره جاء الإسلام ليغير كل ذلك بسلام وبشكل تدريجي لا يتعارض والثوابت التي أعتاد الناس هناك عليها .

والرائع في الأمر أن الإسلام لم يتعامل بحزم مع المسائل التي لا تتعارض مع العقيدة وقضى عليها بشكل تدريجي فهو لم يحارب الهوية الأفريقية ولم يفرض على السكان مسألة تخليهم عن أفريقيتهم ويحولهم إلى عرب بشكل قسري ، بل على العكس عزز في نفوس الناس هويتهم لا بل شملهم بهوية أوسع وهي الهوية الإسلامية الشاملة لكل المنضوين تحت لواءها ، كما أن الثابت الآخر وهو اللغة والتي لم يحاول الإسلام القضاء عليها وإجبار السكان على الكتابة والتكلم باللغة العربية فبقيت لغتهم سائدة وهم في نفس الوقت يقبلون على اللغة العربية كونها لغة دينهم الجديد ، وهو أمر معاكس تماماً لما فعله الأوربيين حينما وصلوا أفريقيا من خلال فرض اللغة الانكليزية أو الاسبانية أو الفرنسية على السكان .

ففي الوقت الذي كان الأفريقي يعتز بمعتقداته ، تقبل الإسلام كدين جديد لما يحمله من تسامح ومحبة ورفق في الدعوة من قبل دعاته سواء كانوا تجاراً أو مهاجرين أو فقهاء ، فكانت التحولات والتغييرات التي حدثت في أفريقيا ذات نفع كبير على المنطقة من خلال دمجها في حضارة عريقة ومتماسكة هي الحضارة الإسلامية .

كلمات مفتاحية: السودان /الصحراء/الحضارة/الغربي/غانة

Abstract :

The research deals with a geographical area in Africa , it has elements of an ancient civilization , built approach not the civilizations that stood in Mesopotamia and the nile valley and other civilizations , but it consider in the point of view of its citizen a civilizations prond of its identity and the elements of its entity . at a time when that region (Africa) lives according to a simple system based on hunting , grazing as a mean of living and from the branchs of trees and beads to cover private parts . and from the mud , wood a way to build houses , and sanctifing kings , considering them as a gods , as well as sanctifing sankes and offering sacrifices to the gods , finally Islam religion came to change all that peacefully and gradually with out contradict with principles that people used to do there .

The wonderful thing is that Islam did not deal firmly with issues that are inconsistent with the doctrine and destroyed them gradually , Islam did not fight African identity , nor impose on the population to abandon their identity as an African citizen and converted them to be Arab by force , but on the contrary . strengthened in the hearts of people their identity more over gave them a wider identity which is comprehensive identity of islam as it given to all those live under its banners , and the another element , the language . Islam did not try to remove it , or force the residents to write and speak Arabic Language . their language remained prevalent and they are at the same time accept . The Arabic Language as the Language of their new religion , which the exact opposite of what Europeans

did when they arrived in Africa through the imposition of English or Spanish or French on the population while the African proud of his beliefs , but he accepted Islam as a new religion because it calls to tolerance , love and kindness in the call by preachers , whether they are traders or migrants or scholars , so the shifting and changings which happened in Africa were very useful to region through integration into an ancient , coherent civilization which is Islamic civilization .

Key Words: Sudan / Desert / Civilization / Western / Ghana

المقدمة :

يفتخر كل شعب من الشعوب بتاريخه وحضارته ويحاول أن يجعلهما أفضل من بقية الحضارات مركزاً على الثوابت والمميزات في تلك الحضارة ، والحضارة بمعناها الأساس لم تكن لتشمل الدول المتقدمة فقط ، فأصل الحضارة البدو كما ذكر ذلك المؤرخ أبن خلدون في مقدمته مقسماً العمران إلى عمران بدوي وعمران حضري .

وربما يعتبر البدوي نفسه ذو حضارة مدافعاً عما يمتلكه من مقومات تكاد تكون قليلة أو معدومة في نظر الآخرين ، فهو يعمل في الزراعة ويقوم بتربية الحيوانات التي يأكل من لحومها ويشرب من ألبانها ، لا بل أنه حتى في حالة الشعوب البعيدة في ماضيها عن الحضارة تفتخر بما قامت به لتسير فيما بعد في ركب الحضارة ، وقد تكون في التجمعات الرعوية البسيطة في الصحراء الأفريقية الكبرى دليلاً على بناء حضارة في تلك البقاع والأماكن الواقعة جنوبها فيما بعد ، فالمجموعة التي كانت تبحث عن الماء القليل لتستقر حوله بدأت توفر حول ذلك المكان مستلزمات العيش المؤهلة للاستقرار .

وقد ساعدها في ذلك توافد التجار من المغرب الإسلامي للذهاب نحو أفريقيا جنوب الصحراء والذين احتاجوا بشكل بديهي للماء والدليل ، فلعب سكان تلك الواحات ومراكز تجمع المياه وهم من البربر دوراً في سقي وإطعام أولئك التجار ومن ثم إرشادهم إلى الطريق الصحيح الأمن مقابل حصولهم على ضرائب مُعينة مكنتهم من الاستقرار وبالتالي تكوين تجمعات سكانية أصبحت فيما بعد مُدناً .

إلا أن تلك المُدن كانت متأخرة حضارياً عن الحضارات الأخرى في العالم كحضارة وادي النيل في مصر ووادي الرافدين في العراق والسبأية والحميرية والبيزنطية والفارسية

والهندية ، لكنها كانت تعتز بنواة حضارتها التي تكاد لا تُذكر قياساً لبقية الحضارات ، ففي الوقت الذي كانت الحضارات تعتز بعمرانها وعلومها وفنونها وبعادات وتقاليد شعوبها ، كانت أفريقيا تبني دور مواطنيها من القصب أو الأخشاب ، وفي الوقت الذي كانت العلوم والفنون تنتشر في بلدان تلك الحضارات كانت أفريقيا تفتقر لذلك الأمر ، وفي الوقت الذي كانت الملابس الفاخرة والمزركشة تنتشر بين شعوب تلك البلدان كان الأفريقي عارياً .

لكننا كلما اقتربنا من بدء الدعوة الإسلامية ووصول التجار المسلمين إلى أفريقيا كلما بدأت بوادر الحضارة تظهر في تلك البقاع ، فترى المنازل بدأت تُبنى من الطين واللبن والحجارة ، والملابس بدت أكثر احتشاماً وزينة ، وقس على ذلك من أمور أدخلها العرب ومن ثم المسلمين إلى أفريقيا كأدوات الزراعة كالمحراث والفؤوس ، كما تعلموا منهم طرق زراعة سفوح الجبال على شكل مصاطب ، وسيطروا على مياه الأمطار من خلال بناء السدود لخزن المياه ، فضلاً عن تطوير وسائل النقل باستخدام الجمل والحصان بعد أن كانت البضائع تُنقل على ظهور الرجال .

إشكالية البحث :

ينوي البحث إبراز عملية التحول الطارئة في غرب أفريقيا والتي غيرت معالم المنطقة بشكل كبير ، ويجيب عن التساؤل القائل : هل غير المسلمون القادمون من خارج أفريقيا تاريخ وحضارة أفريقيا بكل مفاصلها ؟ ، وهل طمس الإسلام صفات كانت قد اكتسبتها الحضارة الأفريقية على الرغم من بساطتها ؟ أم على العكس حافظت عليها وأضافت لها الجيد والمفيد ، وهو ما سيحاول البحث الإجابة عنه من خلال تناول جزء من منطقة أفريقيا جنوب الصحراء وهي منطقة غرب أفريقيا أو كما سماها المؤرخون المسلمون السودان الغربي والتي يحدها من الشمال الصحراء الكبرى ومن الجنوب الغابات الاستوائية ومن الشرق منحنى نهر النيجر ومن الغرب المحيط الأطلسي .

أهمية البحث :

تظهر أهمية البحث من خلال الدور الذي لعبه الإسلام في إدخال الشعوب البعيدة عن الحضارة في الإسلام وبالتالي ضمها لركب الحضارة العربية الإسلامية ، من خلال إظهار الدور السلمي والبسيط لعملية التحول تلك والتي يكاد ينفرد ويتميز بها الإسلام ، تلك العملية التي أتبع فيها المسلمون الأسلوب التدريجي في القضاء على الأمور التي لا تتعارض مع عقيدة الإسلام دون إكراه شعوب تلك الحضارة - التي حل عليها الإسلام – على ذلك الأمر .

كما تظهر مسألة مراعاة خصوصية ومكتسبات تلك الحضارة وتعامل الإسلام معها ، لاسيما مسألة الهوية الأفريقية الزنجية واللغة وغيرها والتي لم يفرض الإسلام على أصحاب الحضارة الأفريقية تبديلها بالهوية العربية وباللغة العربية ، وحتى إذا ابتعدنا عن بدايات وصول الإسلام للقارة الأفريقية ووصلنا إلى سنوات اقتراب خطر الاستعمار البرتغالي من شرق أفريقيا نلاحظ أن العثمانيين قد عرضوا على الأفارقة الدفاع عنهم كمسلمين دون المساس بهويتهم وتاريخهم وهو شأن الحضارة الإسلامية .

أثر الحضارة العربية الاسلامية :

أمام تلك الحالة التي كانت عليها الشعوب الأفريقية والتي تم الحديث عنها في مقدمة البحث والتي تتمثل في فقدان للحقوق والواجبات وتخلف وما إلى ذلك ، وصل الإسلام إلى المنطقة يحمله بشكل سلمي وسلس تجار حاملين معهم مواد تجارية تُنتج في بلادهم وتفتقر إليها القارة الأفريقية كالملابس والحبوب والملح وما إلى ذلك ويستوردوا بدلاً عنها منتجات القارة من الذهب والعاج والنحاس والرقيق وغيرها .

لقد تميز الإسلام عن بقية الأديان السماوية كونه لا يمتلك طبقة كهنوتية تبشيرية كما هو الحال في الديانة المسيحية ، كما أنه ليس ديناً مغلقاً كالديانة اليهودية ، فهو يدعو الناس للدخول فيه بالتي هي أحسن[1] ، وهو ما فعله كل زائر لتلك القارة سواء كان تاجراً أو مهاجراً أو متفقهاً في الدين داعياً له ، فالأفريقي أنجذب لذلك التاجر الذي توضأ أمامه ثم صلى ، ثم اندهش وانجذب لملابسه النظيفة والمحتشمة والتي تختلف عن ما اعتاد الأفارقة على لبسه من ملابس تستر العورة فقط ، كما أن تعامل التاجر الأفريقي مع التاجر المسلم في البيع والشراء جعله في تماس مباشر معه قريباً من عاداته وتقاليده سواء في العمل أو المعيشة ، فبعد أن اعتاد الأفريقي على التعامل بالربا والغش وعدم الصدق في موعد تسديد ثمن البضاعة ، شاهد أمامه التاجر المسلم يرفض الغش ويحاربه ويمنع الربا ويصدق في مواعيده[2] .

لكل ذلك حاول الأفارقة التقرب من التجار المسلمين والتعامل معهم ليتبع تلك الخطوة استقرار بعض أولئك التجار في أفريقيا وتزوجهم من النساء الأفريقيات وبالتالي اندماجهم في ذلك المجتمع ، كما أن توافد الهجرات إلى أفريقيا قادمة من المغرب الإسلامي ومصر وعُمان واليمن والعراق وبلاد الشام أسهم بشكل كبير في تعريف الأفارقة بالحضارة الإسلامية وأخذ ما هو جيد منها ودمجه في حضارتهم الأم[3] .

كما أن حكام الدول والإمبراطوريات التي قامت على تلك الأرض بدءوا يتطلعون لربط تاريخهم وحضارتهم بتاريخ وحضارة القادمين من بلاد الإسلام ، فنرى ملك غانة الوثني يقرب من بلاطه كل مسلم يسمع أن لديه موهبة مُعينة أو قدرة على عمل ما يسهم في ربط مملكته بركب الحضارة ، فنراه يختار وزرائه وصاحب بيت ماله ومترجميه من بين التجار المسلمين الموجودين في بلاده والذين عملوا على تطوير البلاد وتنظيم الأمور المالية والإدارية فيها[4] .

وفي مثل ظروف أفريقيا فأن التحول والتغيير الذي حصل بوصول الإسلام إليهم يُعد حقيقياً وكبيراً ، فتحولهم إلى مجتمع متحضر بفضل الإسلام لم يعني لهم وللمسلمين هناك إلغاء الماضي ونسيانه ، لكن الإفادة من الماضي والحاضر للنجاح في المستقبل ، فظهرت لهم معاني جديدة لم يكونوا يعلموا عنها شيئاً ، فبالحضارة علموا أن المجتمع المسلم المتحضر تُلغى فيه الفوارق بين الناس فيتساوون في الحقوق والواجبات ومستوى المعيشة وتسود العدالة الاجتماعية وتُحترم فيه حقوق الفرد وتُلغى الطبقية[5] .

وعلى ذلك الأساس تقبلوا الدين الإسلامي حكاماً وشعوباً ، فالشعب تمسك به كونه دين للتسامح والمحبة والحضارة ، والحاكم قبل به وتمسك به كونه دين التجمع والوحدة وهو ما كان يدعو له الأفارقة فبدلاً من وحدة القبيلة أو المدينة أصبحت الوحدة عامة شاملة لكل المنضوين تحت راية الإسلام فهي أمة إسلامية واحدة[6] ، والإسلام لم يأتي إلى أفريقيا لينهي دور حكامها ويستبدلهم بحكام مستوردين للمنطقة من خارجها ، بل على العكس أبقى على أولئك الحكام وتعامل معهم وفق مبدأ التسامح والذي انعكس ايجابياً على طريقة تعاملهم مع رعاياهم من المسلمين وهو ما يُشاهد جلياً في مملكة غانة الإسلامية التي قسمت عاصمتها إلى قسمين الأول للملك ولرعيته ، والقسم الثاني لشعبه الذي يشكل المسلمين نسبة كبيرة منه[7] .

لقد احتاج التعايش بين الأفارقة وبين المواطنين الجُدد من المسلمين تعرف أحدهما على لغة الآخر ليتمكنوا من التفاهم فيما بينهما لاسيما في منطقة تكاد تصل لغاتها ولهجاتها المحلية إلى حوالي الثمانمائة مقابل لغة واحدة وافدة هي اللغة العربية ، فضلاً عن أن تلك اللغات واللهجات تُعد مكتسباً أساسياً لدى الأفارقة لا يمكن الاستغناء عنه ، إلا أن حكمة الإسلام ورجاله جعلت من اللغة العربية بكاملها أو ببعض مفرداتها مقبولة لدى أولئك السكان ، ففي دولة مالي الإسلامية كان السكان يشجعون أبنائهم على حفظ القرآن الكريم وتعلم اللغة العربية ، وفي بعض الأحيان تقاضي الضرورة استخدام القيود التي يربطوا بها أقدام أبنائهم ليحفظوا القرآن الكريم [8] .

فاللغة العربية وصلت إلى تلك المنطقة ودخلت في لغة البلاد الأم دون إلغاء تلك اللغة التي يعتز بها السكان الأصليين لا بل نتج عن ذلك التعامل سيادة حروف ومفردات اللغة العربية وبالتالي وصول اللغة العربية ككل للمنطقة والتي أصبح الأفريقي المسلم بأشد الحاجة لها ليتمكن من قراءة القرآن الكريم ، فضلاً عن ذلك فأن تلك اللغة تمتاز بكونها واضحة ومنطقية ومرنة وسهلة من خلال قدرتها على الهيمنة على لغات عديدة ، كما تميزت بخاصية الاختصار التي جعلتها تعبر عن الكثير بالقليل[9] ، وقد عبر عن مكانتها توماس أرنولد بقوله : ((لقد بلغت اللغة العربية حداً يفوق كل وصف من الغنى والجمال وإذا ما تعلم الأفريقيون هذه اللغة أصبحت لغة التخاطب وهي إلى ذلك لغة شريعة وقانون مكتوبة حلت محل نزوات شيخ القبيلة الاستبدادية وهذا تغير يعتبر في ذاته تقدماً هائلاً في الحضارة))[10].

وفي حوالي القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي أصبحت اللغة العربية لغة التخاطب في مدن غرب أفريقيا فيها كُتبت الدواوين والسجلات الرسمية ، كما أصبحت اللغة الرسمية في دولة السنغاي[11] ووردت المراسلات بين الملوك السودان وحكام مصر والمغرب باللغة العربية وهو يشير إلى انتشار اللغة العربية هناك دون إكراه بل برغبة سكان البلاد الأصليين[12] ، وكان الخط السائد في السودان الغربي هو الخط المغربي فيقول المؤرخ القلقشندي عن دولة مالي : ((إن بهذه المملكة الوزراء والقضاة والكُتاب والدواوين ، وأن السلطان لا يكتب شيئاً في الغالب ، بل يكل كل أمر إلى صاحب وظيفته من هؤلاء فيفصله ، وكتابتهم على طريقة المغاربة))[13].

لقد تقبل الأفارقة ذلك التحول الطارئ والكبير في حياتهم لما لمسوه من المسلمين من حسن أخلاق ومعاملة ، فالإسلام لم يكن في يوم ما ليفرق بين أبيض أو أسود ولا بين عربي وغير عربي تأكيداً لقوله تعالى بسم الله الرحمن الرحيم ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)) صدق الله العظيم[14] ، فتعامل الإسلام مع الناس ومنهم الأفارقة السود على هذا الأساس الذي جعله يتقدم في أفريقيا بسبب القضاء على كل إحساس باحتقار الأسود أو معاملته على أنه من طبقة منحطة كما كان عليه الحال في المسيحية[15].

كما أننا إذا ما قارنا عملية التحول والتغيير الحضاري في أفريقيا حينما وصلها الإسلام وبين التحول الذي حصل على يد البرتغاليين وغيرهم من المستعمرين حينما وصلوا القارة

الأفريقية ، فالمسلم الداعي لدينه في أفريقيا نجح نجاحاً كبيراً إذا ما قورن بالإرساليات المسيحية هناك ، فالأسود المتنصر يميل للإحساس بأن أبناء دينه من الأوربيين ينتمون إلى لون من الحضارة لا يلائم طبائعه في الحياة ، في حين يشعر في المجتمع الإسلامي بأنه أكثر تعلقاً به واطمئناناً إليه ، فالمواطن النيجيري مثلاً مُقتنع بأن دخوله في الإسلام لا يحتاج منه أن يفقد قوميته ، ولا يستلزم تغييرات انقلابية في الحياة الاجتماعية ، وهو لا يقوض نفوذ الأسرة أو سلطة الجماعة ، ولا توجد هوة بين الداعي للإسلام والمتحول إليه فكلاهما أمام الله واحد ، ولا يعني الدخول في الإسلام ترك شؤون الأسرة والحياة الاجتماعية أو عدم احترام حكام البلاد الأصليين وإنما بالإسلام وحضارته ينتقل الإنسان إلى منزلة أرقى وفكرة أسمى تحرره من الأوهام والخرافات[16].

لقد أدى اعتناق الأفارقة للإسلام إلى إعطاء الحضارة الأفريقية طابع إسلامي كبير صُبغت بها الطقوس الحياتية الأساسية التي يتميز بها مجرى حياة الفرد من ولادته وحتى مماته ، فقد تركت الشريعة الإسلامية أثرها الكبير على حياة الأسرة الأفريقية من حيث عادات الزواج والإرث ودفع الدية وغيرها ، مع الحفاظ على المكتسبات الأصلية للحضارة الأفريقية في ذلك المجال ، إذ عُدلت بعض التشريعات في ضوء النظم الاجتماعية التي كانت سائدة في مجتمع الساحل الشرقي لأفريقيا قبل انتشار الإسلام ، فقد طُبقت الشريعة الإسلامية في أمور الأرث مثلاً ولكن بما لا يتعارض مع ما كان سائداً في مجتمع الساحل من أنماط تقليدية تتعلق بحقوق الملكية[17].

لقد أعتبر الأفارقة عملية التحول والتغيير الحضاري في بلادهم بمثابة نصر لهم ، فقد ضمت في ثناياها الكثير من الفوائد وعلى كافة الأصعدة ، فهي عملية تحول من الانعزال والوحشية والتعري إلى الوحدة والتقدم والانفتاح على الآخرين والنظافة ولبس الملابس المحتشمة ، فهم بدلاً من أن يكونوا ضمن إطار القبيلة الواحدة التي تدخل في حروب مستمرة مع القبائل الأخرى أصبحوا أعضاء ضمن الأمة الإسلامية الواسعة الأرجاء ، كما أن حكامهم وملوكهم بدلاً من أن يحكموا بلدان معزولة ويطيعهم الناس ضمن إطار الخوف والتبجيل الزائف ، أصبحت طاعتهم واجبة من قبل جميع الرعية وفق تعليمات إلهية بطاعة أولي الأمر[18].

وحينما نتابع عملية التحول الحضاري تلك نلاحظ أن الإسلام سمح للسكان الأفارقة بالإبقاء على مكتسباتهم الحضارية القديمة التي لا تتعارض والشرع الإسلامي والتي زالت فيما

بعد بمرور الزمن ، ومنها قيامهم في شرق أفريقيا باختبار الملك الجديد وقياس مدى عدله بين الناس ، فإذا ما أخطأ وأرتكب جرائم بحق شعبه فأن القتل سيكون مصيره كونه ممثلاً لله على الأرض ، بل كان يُلقب بـ (وقليمي) وتعني (أبن الرب الكبير) ، كما أن أولاده سوف يمنعون من تقلد الحكم في البلاد[19] . ويبدو إن الإسلام في تلك الحالة تعامل بحذر وبالتدريج من خلال إقناع الأفارقة أن الملك هو بشر وليس أبن لله لان ذلك يتعارض مع الشرع ، وأبقى على طريقة اختيار الملك ومعاقبته إذا أصبح ظالماً بسبب عدم مساسها بالشرع .

ولشدة قناعة الأفارقة بأن المسلمين هم سبب دخول الحضارة إليهم ، وأن للعرب كونهم من أوائل الواصلين إلى أفريقيا الفضل الأكبر في ذلك التحضر فقد أطلقوا على الإنسان المتحضر اسم (staaribika) أي استعرب ، وسموا الحضارة في لغتهم (UStaarabu) أي استعراب واللفظ مشتق من استعرب أي أصبح عربياً أو كما يعنونه هم أصبح متحضراً[20] .

فالأفريقي الأسود يصبح مساوياً للمسلمين الآخرين حال دخوله في الإسلام ، فلا يحول دون ذلك لونه أو جنسه ، والترحيب الذين كان يلقاه الوثنيون الأفارقة حال دخولهم بالإسلام هو الذي كان يجعلهم يتمسكون به ويشجعهم على الانضمام إلى مجتمع متحضر يتطلب منهم التخلي عن كثير من عاداتهم وتقاليدهم البربرية إذا صح التعبير ، إذ أن مجرد الدخول في الإسلام يدل ضمنا الترقي في الحضارة وخطوة جدية لتقدم القبيلة الزنجية عقلياً ، فقوى التحضر والخير كانت لا تجد صعوبة في القضاء تدريجياً على ما كان يكتسبه الأفريقي من عادات وتقاليد وثنية ، إذ أن أقبح الرذائل وهي (أكل لحوم البشر ، وتقديم الإنسان كقربان ، ووأد البنات وهن أحياء) كل ذلك اختفى وإلى الأبد بدخول الأفارقة في الإسلام[21] .

وفي باب التعامل مع مكتسبات الحضارة الأفريقية القديمة والقضاء على الوثني منها بشكل تدريجي من خلال إقناع الداخلين الجُدد في الإسلام بعدم فائدة تلك العادات والتقاليد ، فقد أبقى الإسلام على عادة التتريب لدى الأفارقة حتى اقتنعوا أنفسهم بتركها ، وهي العادة التي يعمل من خلالها المواطن الأفريقي بوضع التراب على رأسه إذا ما امتدحه الملك أو السلطان والتي استمر عليها البعض حتى وقت متأخر[22] ، إلا أن دعوة الإسلام للنظافة والتطهر دفعت الكثير من الأفارقة حكاماً ومحكومين لنبذ تلك العادة وتركها[23] .

إلا أن أهم تحول طرأ على الحضارة الأفريقية بعد انتشار الإسلام في المنطقة يتمثل في القضاء على العصبية القبلية التي كانت سائدة والتي بُني المجتمع الأفريقي عليها من خلال عد رئيس القبيلة الممثل الوحيد لأبناء القبيلة أمام أرواح الأسلاف أو أمام الآلهة الأخرى ، فضلاً

عن ذلك فأن العديد من المعارك قد جرت قبل إسلام الأفارقة بين أبناء القرى المتجاورة والتي كان يسقط فيها عدد كبير من القتلى من الجانبين فضلاً عن أعداد أخرى تُحول إلى رقيق يحصل عليها المنتصر في تلك المعارك[24] . ويبدو أن تلك العصبية القبلية قُضي عليها وتحولت إلى تعاون ومحبة وارتباط كامل بالأمة الإسلامية التي تحتضن الجميع وتجعل من التقوى المقياس الحقيقي للتميز.

إن ذلك التحول الطارئ في الحضارة الأفريقية أتى أُكله بمرور الزمن ولاسيما حينما تكونت ممالك ودول إسلامية في المنطقة حاولت تقليد كل مفاصل الحضارة الإسلامية في المشرق والمغرب ، فنلاحظ الحاكم أو الملك في تلك الممالك يتخذ له أسما ولقباً مشابهاً لأسماء وألقاب الخلفاء الراشدين كاسم أبو بكر في إشارة إلى سيدنا أبو بكر الصديق ﷺ ، أخر تسمى بالهادي العُثماني تيمناً بسيدنا عثمان بن عفان ﷺ ، آخرين أدعو النسب لقائد عربي شجاع وهو سيف بن ذي يزن ، أما أهل مملكة غانة فقد سموا عاصمة دولتهم بمدينة (صالح) وقالوا أن ذلك الرجُل من نسل سيدنا الحسن بن علي عليه السلام [25] .

كما عمل أولئك الحكام على لبس العمامة وهي إشارة لتقليد الخلفاء العباسيين في بغداد ، وصبغوا مجالسهم بصبغة أولئك الخلفاء من خلال زيادة أعداد الحرس والعبيد والجواري ، وتقريب كل ذي علم ومعرفة قادم من بلاد المسلمين الأخرى ، فضلاً عن بناء قصورهم بشكل يشابه أو يتغلب على الطراز المعماري المغربي أو الأندلسي أو المصري من خلال جلب بنائين ومهندسين إلى أفريقيا ليعملوا على تنفيذ ما يطلبه ذلك السلطان[26] .

وعمل حكام أفريقيا على إفهام الآخرين بان أفريقيا تمتلك من الأموال ما يجعلها في مصاف الدول الغنية والمعروفة في تلك الفترة ، وأن الحضارة الإسلامية قد وصلتها وأتت أُكلها وهو ما أراد السلطان (موسى بن أبي بكر 712-737هـ/1312-1337م) أن يظهره للسلطان المصري (محمد بن قلاوون) خلال رحلة الأول للحج سنة (724هـ/1324 م) لاسيما حينما جلب معه ألاف من العبيد والجواري ودعا كل من يريد الحج من قومه للذهاب معه ، كما أخذ معه كميات كبيرة من الذهب ليمنحها هدية للسلطان المصري ، أو يوزعها على كل من صادفه في طريقه من غني أو فقير ، واشترى بالكمية الباقية ما يحتاجه[27] .

ولم يقتصر الأمر على ذلك بل شمل إفهام العالم الإسلامي أن الإسلام وحضارته قد وصلا إلى أفريقيا وأن السكان متمسكين بهما كثيراً ، فقد رفض سلطان دولة مالي (موسى بن أبي بكر التكروري) الانحناء أو السجود للسلطان (محمد بن قلاوون) عندما مر بمصر خلال

رحلته لأداء فريضة الحج ، قائلاً : (أنا مُسلم ومالكي المذهب فلا اسجد لغير الله تعالى) ، وقد قدر السلطان (قلاوون) الأمر وقابله وأكرمه مانحاً إياه الكثير من الهدايا والتي ضمت قصراً كبيراً في مصر لذلك السلطان المالي ، كما أن السلطان موسى عمل على جلب عدد كبير من كتب المالكية من الحجاز إلى بلاده ليفقه شعبه بذلك المذهب الذي وصلهم من بلاد المغرب الإسلامي[28].

وكان السلطان موسى وخليفته أخيه السلطان (سليمان بن أبي بكر التكروري 742-762هـ/1341 -1360م) من أشد حكام أفريقيا في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي تمسكاً بالعدل والصلاح ، إذ يبدو أن مبدأ العدل من المبادئ الاجتماعية الموروثة في المجتمع الأفريقي وهي من مكتسباتهم التي حافظوا عليها ودعموها بتعاليم الإسلام ، وحينما ظلم حاكم إحدى مُدن دولة مالي الإسلامية تاجراً من بربر قبيلة مسوفة عمل السلطان (سليمان) على عزل ذلك الحاكم ومعاقبته ، كما جمع وزرائه وقادة جيشه وحاشيته ونوابه على الأقاليم وقال لهم : ((إني بريء من الظلم ، ومن ظلم منكم عاقبته ، ومن علم بظالم ولم يعلمني به فذنوب ذلك الظالم في عنقه والله حسيبه وسائله))[29].

وربما يكون لعامل الأمن والأمان الذي حظيت به أفريقيا في تلك الفترة مؤشراً حقيقيا للتقدم الحضاري الذي قد نكون نفتقده حتى في يومنا هذا ، ويشير الرحالة أبن بطوطة إلى ذلك الأمان خلال رحلته من إحدى المدن إلى العاصمة قائلاً : ((لما عزمت على السفر إلى (مالي) العاصمة وبينها وبين ايوالاتن (مدينة تقع قريباً من حدود الصحراء الكبرى الشمالية) مسيرة أربع وعشرين يوماً للمُجد (أي للمُسرع) ، أكتريت دليلاً من مسوفة ، إذ لا حاجة إلى السفر في رفقة لأمن تلك الطريق ، وخرجت في ثلاثة من أصحابي))[30].

إن الأمر الذي سهل عملية التحول الحضاري في أفريقيا يتمثل في مجموع الميزات التي حملتها الحضارة الإسلامية التي وصلت بشكل سريع ومفاجئ إلى المنطقة وتقبلها السكان ، فالداعية إلى الإسلام بين القبائل الوثنية على ثقة في الاستجابة السريعة له ، فهو يستطيع أن يمنحهم حقائق كثيرة تتعلق بالله والإنسان تصل إلى قلوبهم وتنمي إدراكهم وتمنحهم ترخيصاً بالدخول في وحدة اجتماعية وسياسية كبيرة تعطيه الحماية والمساعدة في تسيير حياته ، ويصبح ذلك الأفريقي الأسود أخاً للمسلم الذي دعاه للإسلام مهما كان لون بشرته سوداء أم بيضاء وهو ما استطاع الإسلام أن ينجح فيه في أفريقيا ، على عكس الداعين للمسيحية هناك والمعتبرين أن المسيحي الأبيض هو السيد والمسيحي الأسود العبد وهو سبب فشلهم هناك[31].

ويبدو من خلال ما تقدم أن مكتسبات الحضارة الأفريقية ولاسيما الهوية واللغة كانت باقية مع التحول الذي حصل حينما دخل الإسلام وحضارته إلى أفريقيا ، وأن المسلمين قد تعاملوا مع اعتزاز الأفارقة بهويتهم ولغتهم بشكل إيجابي شجع الأفارقة على دخول الإسلام والاندماج في الحضارة الإسلامية ، وهو عكس ما حصل حينما حصل تغير حضاري أخر في القارة لاسيما مع وصول البرتغاليين ومن ثم الانكليز والفرنسيين وغيرهم ومحاولتهم طمس تاريخ وحضارة أفريقيا ، ومحاولة القضاء على كل ما يصل المنطقة بتاريخ وحضارة العرب المسلمين من خلال ربط أفريقيا بالغرب المسيحي هويةً وتاريخاً وحضارة ، ومن ثم القضاء على اللغة العربية هناك من خلال الترغيب باللغات المحلية الأفريقية وبالتالي القضاء عليها أيضاً ليحل بدلاً عنها اللغة الانكليزية والفرنسية وهو ما عانت وتعاني منه تلك المنطقة[32].

الخاتمة:

في ختام هذه الدراسة لابد من بيان بعض النتائج التي توصلت إليها والمتمثلة في :

1- امتلك الأفارقة قبل وصل الإسلام إليهم مقومات بسيطة للحضارة إلا أن المؤرخين والجغرافيين المسلمين لم يأخذوها بنظر الاعتبار لان الحضارة في نظرهم لا تقوم إلا بقيام الدول وهو ما كانت تفتقد إليه المنطقة .

2- بوصول الإسلام إلى المنطقة بدأت مرحلة جديدة في تاريخ أفريقيا تمثلت بصقل وتطوير الحضارة الأفريقية .

3- لم تكن عملية التغيير الحضاري في أفريقيا صعبة القبول من قبل الأفارقة ومرفوضة بل على العكس كان مُرحب بها بشكل كبير .

4- أن عملية التحول الحضاري الطارئ الذي حصل في أفريقيا مع دخول الإسلام حول المنطقة إلى جزء لا يتجزأ من العالم الإسلامي وحضارته .

5- لم تعمل الحضارة الإسلامية على القضاء على مكتسبات الأفارقة الحضارية وفي مقدمتها الهوية ، فقد اعتز الإسلام بجميع المنضوين تحت رايته عرباً وفرساً وتركاً وأفارقة وهنود وغيرهم ولم يحاول طمس هوياتهم .

6- فضلاً عن ذلك فأن الحضارة الإسلامية لم تعمل على القضاء على اللغة الأفريقية الأم أو اللغات واللهجات المحلية الأخرى واعتزت بها .

7- انتشرت مقومات الحضارة الإسلامية بين الأفارقة دون إكراه ، فالأفريقي شعر أن الهوية الإسلامية أوسع وأعظم من الهوية القومية فتمسك بها ، كما أنه شعر أنه بحاجة للغة العربية ليفهم بها القرآن الكريم وسنة الرسول محمد ﷺ فتعلمها وحافظ عليها ، فضلاً عن أنه أحس برغبة في تمثل مفردات الحضارة الإسلامية لما فيها من انتقال مباشر نحو الرُقي فأصبحت ملابسه محتشمة ونظيفة وفاخرة ، وأصبحت النظافة عنوان حياته ، كما أن داره الطيني أو المصنوع من الحجر البسيط تحول إلى دار مبني وفق طُرز معمارية حديثة وهكذا .

الهوامش والإحالات

[1]() دريد عبد القادر نوري ، تاريخ الإسلام في أفريقيا من القرن 4-10هـ/10-16م ، (الموصل:1985) ، ص124 .

[2]() عبد السميع المصري ، التجارة في الإسلام ، (القاهرة:1976) ، ص14 .

[3]() إسماعيل العربي ، مسالك الإسلام والعربية إلى الصحراء الكبرى ، مقال منشور في مجلة الثقافة الصادرة في الجزائر ، سنة 1981 ، العدد (62) ، ص42 .

[4]() أبي عبيد البكري ، المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك ، (الجزائر:1857) ، ص175 .

[5]() مخايل مسعود و ساجيع الجبيلة ، الحضارات الصراع والحوار ، المؤسسة الحديثة للكتاب ، (بيروت:2009) ، ص27 .

[6]() نوري ، تاريخ ، ص124 .

[7]() محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي المعروف بابن بطوطة ، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، اعتنى به وراجعه : درويش الجويدي ، المكتبة العصرية ، (بيروت:2007) ، ج2 ، ص282 .

[8]() شاخت وبوزورت ، تراث الإسلام ، ترجمة : محمد زهير السمهوري ، (الكويت:1978) ، القسم الأول ، ص162 .

[9]() نوري ، انتشار اللغة العربية في أفريقيا جنوب الصحراء خلال القرون 4-8هـ/10-16م ، بحث منشور في مجلة آداب الرافدين ، العدد الثلاثون ، ص94 .

[10]() توماس آرنولد ، الدعوة إلى الإسلام بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية ، ترجمه إلى العربية وعلق عليه : حسن إبراهيم حسن وآخرون ، ط3 ، (القاهرة:1970) ، ص398 .

[11]() السنغاي : وهي إحدى الدول الإسلامية التي قامت في السودان الغربي ابتدأً من القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي وتمكنت من أن تقيم دولة واسعة على طرفي نهر النيجر متخذة من مدينة غاو عاصمة لها . ينظر : نوري ، تاريخ الإسلام ، ص155 .

[12]() أحمد بن علي القلقشندي ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، تحقيق : نبيل خالد الخطيب ، دار الكتب العلمية ، ط1 ، (بيروت:1987) ، ج5 ، ص269 .

[13]() القلقشندي ، صبح الأعشى : 298/5 .

[14]() سورة الحُجرات ، أية 13 .

[15]() آرنولد ، الدعوة ، ص394 .

[16]() آرنولد ، المرجع نفسه ، ص395 .

[17]() شاخت وبوزورت ، تراث الإسلام ، ص163 ؛ خولة شاكر محمد الدجيلي ، العلاقات العربية الإسلامية مع الساحل الشرقي الأفريقي حتى القرن التاسع الهجري ، أطروحة دكتوراه غير منشورة ، (جامعة بغداد: 1980) ، ص206 .

[18]() أحمد سوسة ، الشريف الادريسي في الجغرافيا العربية ، الباب الأول ، 1974 ، ص106 .

[19]() أبو الحسن علي بن الحُسين بن علي المسعودي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، دار الأندلس للطباعة والنشر ، (بيروت:1966) ، ج2 ، ص16-17 .

[20]() داؤد سلوم ، الألفاظ المستعارة من العربية في اللغة السواحلية ، بحث منشور في مجلة كلية الآداب بغداد ، العدد 19 ، 1976 ، ص1 .

[21]() آرنولد ، الدعوة إلى الإسلام ، ص396-397 .

[22]() البكري ، المُغرب ، ص176 .

[23]() أحمد عطار ، إنسانية الإسلام ، (بيروت:1386هـ) ، ص64 .

[24]() فوزية يونس فتاح ، التأثيرات الحضارية العربية الإسلامية على السودان الغربي بين القرنين 4-8هـ/10-14م ، أطروحة دكتوراه غير منشورة ، (جامعة الموصل:1994) ، ص213 .

[25]() البكري ، المُغرب ، ص175-176 ؛ أحمد الشكري ، الإسلام والمجتمع السوداني إمبراطورية مالي 1250-1430م ، المُجمع الثقافي ، (أبو ظبي:1999) ، ص114 .

[26]() طرخان ، دولة مالي الإسلامية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، (القاهرة:1973) ، ص154 .

[27]() عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أخبار العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، (بيروت:1956) ، ج5 ، ص932 ؛ أحمد بن يحي بن فضل الله العمري ، مسالك الإبصار في ممالك الأمصار (من الباب الثامن إلى الباب الرابع عشر) ، تحقيق وتعليق : مصطفى أبو ضيف أحمد ، ط1 ، (الرباط :1988) ، ص67 .

[28]() أحمد بن علي المقريزي ، الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك ، تحقيق : جمال الدين الشيال ، (القاهرة:1955) ، ص28 .

[29]() أبن بطوطة ، تحفة النظار ، ج2 ، ص280 .

[30]() أبن بطوطة ، المصدر نفسه ، ج2 ، ص272 .

[31]() آرنولد ، الدعوة إلى الإسلام ، 393-394 .

[32]() جمال زكريا قاسم ، الروابط العربية الأفريقية قبل حركة الكشوف الجغرافية وبدء حركة الاستعمار الأوربي في القرن الخامس عشر ، بحث في كتاب العلاقات العربية الأفريقية دراسة تاريخية للآثار السلبية للاستعمار ، دار غريب للطباعة ، (القاهرة:1977) ، ص47 .

قائمة المصادروالمراجع :

أولاً : المصادر الأولية :

- أبن بطوطة ، محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي .

1- تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، اعتنى به وراجعه : درويش الجويدي ، المكتبة العصرية ، (بيروت:2007)

- البكري ، أبو عبيد

2- المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك ، (الجزائر:1857) ، ص175 .

- أبن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد .

3- العبر وديوان المبتدأ والخبر في أخبار العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، (بيروت:1956) .

- العمري ، أحمد بن يحي بن فضل الله .

4-مسالك الإبصار في ممالك الأمصار (من الباب الثامن إلى الباب الرابع عشر) ، تحقيق وتعليق : مصطفى أبو ضيف أحمد ، ط1 ، (الرباط :1988) .

- القلقشندي ، أحمد بن علي .

5- صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، تحقيق : نبيل خالد الخطيب ، دار الكتب العلمية ، ط1 ، (بيروت:1987) .

- المسعودي ، أبو الحسن علي بن الحُسين بن علي .

6- مروج الذهب ومعادن الجوهر ، دار الأندلس للطباعة والنشر ، (بيروت:1966) .

- المقريزي ، أحمد بن علي .

7-الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك ، تحقيق : جمال الدين الشيال ، (القاهرة:1955) .

ثانياً : المراجع العربية والمعربة :

- آرنولد ، توماس .

1- الدعوة إلى الإسلام بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية ، ترجمه إلى العربية وعلق عليه : حسن إبراهيم حسن وآخرون ، ط3 ، (القاهرة:1970)

- بوزورت ، شاخت .

2- تراث الإسلام ، ترجمة : محمد زهير السمهوري ، (الكويت:1978) .

- سوسة ، أحمد .

3- الشريف الادريسي في الجغرافيا العربية ، الباب الأول ، 1974 .

- الشكري ، أحمد .

4-الإسلام والمجتمع السوداني إمبراطورية مالي 1250-1430م ، المُجمع الثقافي ، (أبو ظبي:1999) .

- طرخان ، إبراهيم علي .

5- دولة مالي الإسلامية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، (القاهرة:1973) .

عطار ، أحمد .

6- إنسانية الإسلام ، (بيروت:1386هـ)

- المصري ، عبد السميع

7- التجارة في الإسلام ، (القاهرة:1976) .

- مسعود ، مخايل و ساجيع الجبيلة .

8- الحضارات الصراع والحوار ، المؤسسة الحديثة للكتاب ، (بيروت:2009)

- نوري ، دريد عبد القادر

9- تاريخ الإسلام في أفريقيا من القرن 4-10هـ/10-16م ، (الموصل:1985) .

ثالثاً : البحوث والدوريات :

- سلوم ، داؤد .

1-الألفاظ المستعارة من العربية في اللغة السواحلية ، بحث منشور في مجلة كلية الآداب بغداد ، العدد 19 ، 1976 .

العربي ، إسماعيل

2- مسالك الإسلام والعربية إلى الصحراء الكبرى ، مقال منشور في مجلة الثقافة الصادرة في الجزائر ، سنة 1981 ، العدد (62) .

- قاسم ، جمال زكريا .

3- الروابط العربية الأفريقية قبل حركة الكشوف الجغرافية وبدء حركة الاستعمار الأوربي في القرن الخامس عشر ، بحث في كتاب العلاقات العربية الأفريقية دراسة تاريخية للآثار السلبية للاستعمار ، دار غريب للطباعة ، (القاهرة:1977) .

- نوري ، دريد عبد القادر .

4- انتشار اللغة العربية في أفريقيا جنوب الصحراء خلال القرون 4-8هـ/10-16م ، بحث منشور في مجلة آداب الرافدين ، العدد الثلاثون .

رابعاً : الرسائل الجامعية :

– الدجيلي ، خولة شاكر محمد .

1- العلاقات العربية الإسلامية مع الساحل الشرقي الأفريقي حتى القرن التاسع الهجري ، أطروحة دكتوراه غير منشورة ، (جامعة بغداد: 1980)

- فتاح ، فوزية يونس .

2- التأثيرات الحضارية العربية الإسلامية على السودان الغربي بين القرنين 4-8هـ/10-14م ، أطروحة دكتوراه غير منشورة ، (جامعة الموصل:1994) .

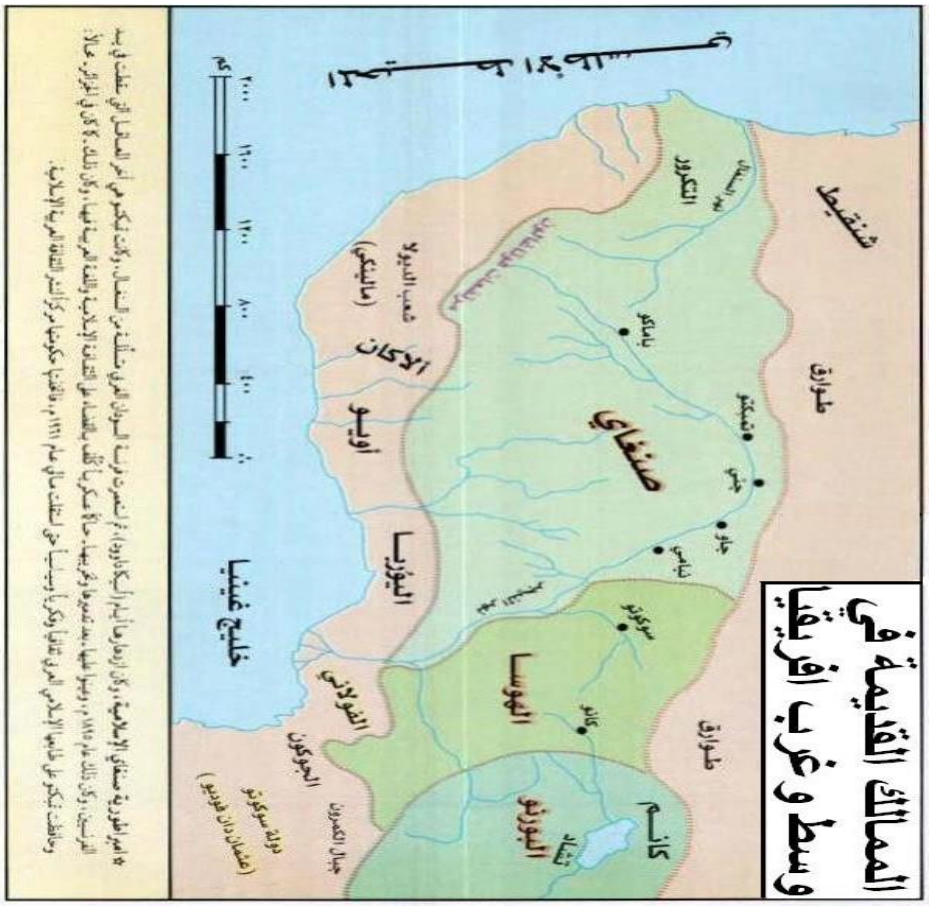
الممالك القديمة في
وسط وغرب افريقيا
شنقيط
طوارق
التكرور
صنغاي
الأكان
شعب الديولا
(مالينكي)
أويمو
اليوربا
خليج غينيا
الفولاني
الجوكون
دولة سوكوتو
(عثمان دان فوديو)
جبال الكمرون
الهوسا
البورنو
كانم
طوارق
تنبكتو
جني
جاو
باناكو
سوكوتو
كانو
نشاد
٠
٤٠٠
٨٠٠
١٢٠٠
١٦٠٠
٢٠٠٠
كم

خارطة رقم 1